بحث عام | قسم الدراسات الدينية | 16 أبريل 2019

البركة والتبرّك والزاوية؛
مقاربة سوسيولوجية لواقع التديّن بالمغرب

دحماني لحسن
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019
All rights reserved © 2019

الملخّص:

إذا كان مفهوم البركة في علاقته بالزاوية قد ارتبط أساساً بالاعتقاد الديني الشعبي كتمثّل رمزي وممارسة عملية أيضاً، فإنّ هذا الإقران هو ما جعله أيديولوجيا فعّالا في ممارسة مالكي البركة سلطتهم على المعتقدين والأتباع؛ وكلّما كان عدد المعتقدين ومريدي الزاوية كثرا، كانت الزاوية من خلال شيخها قوية، فسلطتها تستمد من حظوتها ونفوذها على مستوى المجال. وبالتالي تشكل تهديداً للدولة السياسية، الأمر الذي يستدعي، إما تحالفاً أو عداءً بينهما. وتبقى العلاقة القائمة بينهما ترتبط أساساً بالمصالح المشتركة وكذا القدرة على حفظ الوجود والتواجد النفوذي لهما. لكن المخزن قد عمل على ترويض الزوايا (شيوخها) من أجل خدمة مصالحه ولو بعد حين، وبالتالي كانت الزاوية تلعب دوراً أيديولوجيا تبريرياً للواقع؛ فقد عملت على إضفاء الشرعية على الحكم السياسي القائم على أسس دينية. لكنّ هذا التبرير لم يكن مجّاناً، بل كان مقابل امتلاك نفوذ اقتصادي واجتماعي على مجال معيّن، فقد عمل المخزن على منح العزائب والهبات للزوايا من أجل بقائها كي تغتال كل حركة تنويرية تحررية من العنف الرمزي والأيديولوجي الممارس على المغاربة عبر تاريخهم الطويل، ولم تكن تلك اليد سوى إيمانهم بالبركة كمفهوم ذي أصول دينية عقدية، البركة كشيء خارق للعادة، قادر على تحطيم حواجز تحقيق الحاجة والتي ليست إلا ذلك النقص الذي يعيشه الإنسان.

على سبيل التقديم:

يتخذ المجتمع المغربي، إلى جانب الدين الرسمي، التديّن الشعبي الذي يرتبط باستخدام مجازات من الواقع وخلق رموز تستقطب الانفعالات الدينية المتفرّقة في حالة انفعالية مشتركة، وهذا ما يؤدي إلى تكوين المعتقد الذي يعتبر الأساس في التديّن الشعبي، والذي يترسخ عبر سيرورة ضاربة في الماضي، حيث ينتقل من جيل إلى آخر بفعل التنشئة الاجتماعية، ويعزز بواسطة الطقس المنظّم، وهو أقوى أشكال التعبير عن الخبرة الدينية، كالهدية والزيارة للزاوية، والتي تعتبر كأحد طقوس التبرّك وحيازة بركة الولي أو السيد أو الشريف (شيخ الزاوية).

فإذا كانت المعجزات ترتبط بالأنبياء، فالكرامة أو البركة ترتبط بالأولياء، باعتبارها امتدادا لمعجزات الأنبياء؛ فالأولياء هم ورثة الأنبياء حسب المنظور الصوفي. فالكرامة أو البركة هي وسيلة لتثبيت ولاية الأولياء وصلاحهم وقربهم من الحضرة الإلهية. فتقديس الأولياء هو ركيزة ما يسمّى بالتديّن الشعبي، والذي تعتبر فيه البركة كمعتقد رئيس في تثبيت سلطة الوليّ أو شيخ الزاوية بصفة عامة، باعتبارهم أناسا قريبين من الله، ندروا أنفسهم في محبة الله وأفنوا عمرهم في عبادته، وهم زاهدون في كل شيء من متع الدنيا؛ وقد أتاهم الله كرامات وبركات سمت بقدرهم عنده تعالى وبين خلقه، ومن ثم فإن شدّ الرحال إليهم، وزيارتهم أحياء كانوا أو أمواتا، هو من صميم عقيدة كثير من الناس. لذلك، سنحاول أن نرصد العلاقة القائمة بين الزوايا من خلال شيوخها وأوليائها وشرفائها، وعلاقتها بالبركة كمعتقد ديني. إذن، ما دلالة مفهوم البركة في علاقته بالزاوايا؟ وهل البركة ترتبط بالحقل الديني فقط، أم إنّها تتجاوز ذلك لما هو اقتصادي وسياسي؟ وهل ساهم مفهوم البركة في تثبيت سلطة الأولياء ونفوذهم السوسيوسياسي والاقتصادي بالمجتمع المغربي؟ ألم تلعب البركة دور الأيديولوجيا التبريرية للواقع الاجتماعي والسياسي؟ أليست البركة مجرّد أيديولوجيا تمكّن مالكيها من حيازة السلطة والنفوذ؟ وإذا كانت الزوايا والبركة ارتبطت بالأولياء والصالحين والشرفاء من الرجال، فهل هذا يعني أنّ البركة حكر على الرجل فقط، أم إنّ البركة محازة للنساء أيضا؟ وإذا كانت هناك نساء وليّات، فهل ولايتهنّ وبركتهنّ مكنتهنّ من ممارسة أدوارا سياسية طلائعية مثل الرجال؟ ثم أخيراً، ما المنطق الذي يحكم تواجد كل من التديّن الشعبي والرسمي في المجتمع المغربي، هل هو منطق الصراع والتنافر والإقصاء أم هو منطق التعايش والانسجام؟

تحديدات مفاهيمية

تعدّ مسألة تحديد المفاهيم مسألة أساسية وغاية في الأهمّية، إلاّ أنّها لا ينبغي أن تتحوّل من وسيلة لبدء البحث إلى غاية له[1]. إذن قبل الخوض في مسألة البركة والزاوية، وجب الوقوف أوّلاً على دلالة المفاهيم المكوّنة لها والعلاقة القائمة بينها.

فالبركة تعني حسب المعجم العربي: الخير والنماء والأمن والسلام؛ ويقال بارك الله فيك، أي أحفّك باليمن، وتبرّك بالشيء أي التمس بركته[2]، وتبارك أي تقدّس، واستبرك بالشيء؛ أي تفاءل به خيراً والتمس نعمه. وفي لسان العرب، تعني البركة الزيادة والنماء، وبارك الله الشيء وبارك فيه وعليه؛ أي وضع فيه البركة.[3]

و**التبرّك**: هو طلب البركة والنماء والسعادة، والتبرّك بالشيء طلب البركة عن طريقه. والتبرّك في مفهومه الاصطلاحي يراد به طلب البركة عن طريق أشياء أو معان ميزها الله تعالى بمنازل ومقامات خاصة بالتبرّك، وآثرها بعنايته على سواها، كما في مس يد النبيّ (ص) تيمّنا ببركتها، أو المسح على بعض آثاره الشريفة بعد وفاته. فالتبرّك مصدره البركة التي خصّ بها الله تعالى بها أشياء أو أشخاصا دون آخرين.[4]

ولعلّ البركة كمفهوم إلهي يوضع في موجودات عديدة بدءًا بالإنسان، وصولاً إلى الأشياء، وهذا ما يجلوه قوله تعالى: "وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة" (سورة مريم الآية: 31) على لسان عيسى بن مريم، وهو الأمر نفسه بالنسبة إلى إبراهيم وإسحاق وغيرهما من الأنبياء والرسل، كما أنّ البركة يمكن أن تكون في الأشياء، كقوله تعالى في سورة آل عمران الآية 96: "إنّ أوّل بيت وضع للناس للذي ببكّة مباركاً وهدى للعالمين"...

فالبركة والخير بهذا المعنى، توجد في كل الأشياء التي ينتفع الإنسان بها، في النبات والحيوان والإنسان. والبركة تفيد الكثرة في كلّ خير، وتعني عبارة "تبارك الله"؛ أي تعالى وتعاظم وتقدّس وتنزّه وتطهّر. كما تقصد عبارة تبارك بالشيء تفاءل به، والمبارك ما يأتي من قِبَله الخير الكثير.[5]

1 المالكي عبد الرحمان: الثقافة والمجال، دراسة في سوسيولوجيا التحضّر والهجرة في المغرب، منشورات مختبر سوسيولوجيا التنمية الاجتماعية، الطبعة الأولى 2015، ص 21

2 المعجم العربي، مادّة: ب ر ك.

3 لسان العرب، 10/390

4 البياتي صباح: التبرّك بالصالحين والأخبار والمشاهد المشرفة، مركز المستبصرين، بدون ذكر سنة النشر، ص ص 3 و4

5 كمون إدريس: مفهوم البركة في الثقافة الشعبية المغربية عند إدوارد فسترمارك، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 28، 2018، ص 3

إنّ البركة هي سرّ الله والرسول في الأولياء والأشياء؛ فهي «ميزة لدنيّة من عند الله، يلهمها ما شاء من مخلوقاته أكانت نِعَماً (الماء والمأكولات وباقي الأرزاق) أو بشراً (الرسل وباقي الأولياء) والأماكن (البقاع المقدّسة)، والأزمنة والأيام والشهور (ليلة القدر، الأشهر الحرام، الجمعة...). فمفهوم البركة يستمد روحه من القداسة الدينية؛ أي أنّ مصدرها إلهي.

مفهوم الزاوية: لم تظهر الزاوية في تاريخ المسلمين، كمركز ديني وعلمي إلاّ بعد الرباط والرابطة، ومعلوم أنّ الرباط لغة: مصدر رابط، يرابط، بمعنى: أقام ولازم المكان. ويطلق في اصطلاح الصوفية والفقهاء على شيئين هما: الأوّل، البقعة التي يجتمع فيها المجاهدون من أجل الدفاع عن البلاد والعباد. أمّا الثاني، عبارة عن المكان الذي يلتقي فيه الصالحون لعبادة الله وذكره، والتفقّه في أمور الدين، بيد أنّ كلمة رباط فقدت معناها لترتبط بالزاوية، فتحوّلت من معنى عسكري إلى معنى صوفيّ صرف.

فالزاوية عبارة عن مكان معدّ للعبادة، وإيواء المحتاجين وعابري السبيل وإطعامهم. وقد عرفت الزاوية المغربية بكونها مدرسة دينيّة ودارا مجّانية للضيافة؛ أي مؤسسة لها طابع إحساني. وكلمة الزاوية مأخوذة من فعل «انزوى»؛ أي ارتكن إلى ركن من أركان المسجد من أجل الاعتكاف والعبادة. «ويعرّفها عبد الله التليدي بأنّها مدارس علمية وأخلاقية تهذيبية، تتخرّج منها جماعات إثر جماعات من المؤمنين الصادقين المخلصين المحبّين.»[6]

لقد كانت الزاوية في بداية القرن الخامس الهجري تسمّى بدار الكرامة؛ أي دار يتمّ فيها إكرام المسافر وعابر السبيل والمحتاج، فقد كانت ترتبط بنمط من الإحساس والتضامن المرتبط بالقيم الدينيّة.

لكنّ القرن الثامن الهجري عرف تكاثر الزوايا في المغرب، حيث نمت حولها مدارس استقر فيها طلبة العلم، كما تطوّر أمر الزوايا خلال القرن العاشر الهجري، حيث بدأت تنتشر وتتوسع، وتتخذ لها موقفا يتمحور حول التدخّل في شؤون البلاد السياسية، وتدعو إلى الجهاد ومقاومة الأجنبي.[7] فلم تعد الزاوية ترتبط بالطابع الإحساني والديني، بل أصبحت مؤسّسة اجتماعية واقتصادية بمنطق ديني.

إنّ العلاقة الناظمة بين الزاوية ومفهوم البركة هو الأصول الدينية لكلا المفهومين؛ فالزوايا ارتبطت بمفهوم الصلاح والشرف والورع والقرب من الحضرة الإلهية، إمّا من خلال الانتساب إلى بيت النبوة، أو

6 عموري عبد العزيز: من تاريخ التصوّف بالمغرب، زوايا مدينة فاس: مؤسّسوها، مريدوها، امتداداتها في المجتمع الفاسي، مؤمنون بلا حدود، 4 أبريل، 2017، ص 7

7 عموري عبد العزيز، مرجع سابق، ص 8

من خلال الورع والصلاح والزهد والعبادة لله عز وجل. وبالتالي، نجد أنّ الطابع الديني هو الخيط الناظم للمفهومين.

الزوايا بالمغرب

إنّ تاريخ الزوايا في المغرب تاريخ طويل جدّاً، فقد ارتبط أولاً بظهور الصوفية في المشرق، ثم أصبحت الصوفية تتمغرب، حتى أصبحت مستقلّة عن تصوّف المشرقيّين، ومنه أصبحت الفرق التصوّفيّة تُنشئ زوايا خاصة بها لها شيخُها وورْدُها؛ أي طريقتها في التعبّد. ولسنا هنا نحاول أن نسرد تاريخ الزوايا، وإنّما ننشد تحليل الزوايا وعلاقتها بالبركة وبالمجتمع المغربي، لذلك وجب الوقوف على أهمّ الوظائف والأدوار التي كانت تلعبها الزاوية بالمغرب، **فما هي أهمّ هذه الوظائف والأدوار؟**

وظائف مؤسّسة الزاويا بالمغرب

لقد لعبت الزوايا أدواراً عديدة عبر تاريخها الطويل، فتراوحت هاته الوظائف بين الديني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي أيضاً.

أ- وظيفة دينيّة تعليميّة:

لم تقتصر الزوايا في تشكيل مؤسّستها على وظيفة الإطعام، بل ثمة وظائف أخرى ساهمت بدورها في تقوية رصيدها الرمزي. فالزاوية هي في الأصل مركز للتعليم والوعظ، وقبلها كان الرباط أداة لتصحيح العقيدة والدفاع عن الملّة الإسلامية ضد كل أشكال الانحراف الديني. وباعتبار الزاوية شكلا متطوراً للرباط، فقد تحولت العملية التعليمية البسيطة إلى ممارسة تعليمية دينية محكمة وفق شروط أكثر وضوحا، فتمكّنت الزاوية من فرض نفسها بفضل مقروآتها وموادها المدروسة وفقهائها المقدمين للتحصيل. كما استقطبت المتعلمين من كل الآفاق موفّرة لهم شروط التعليم والإقامة، بل أصبحت هذه الشروط من وظائفها الأساسية التي تحصلت بسببها على كل ما يلزم لبقاء دورها العلمي والصوفي مستمرّا[8].

لقد حرص الشيوخ المقدّمون للتربية الصوفية والتعليم الديني على تطوير أدائهم وبلورة هذا الأداء في صورة تلقين مجسّد لشخصيتهم الصوفية القائمة على سمات التسليم والبركة، وهما بمثابة القناة الخفية لما يمكن اعتباره الكمال في الوظيفة التعليمية التي يفيض عطاؤها على المريد المتعلّم الآخذ من علم شيخه،

8 المازوني محمد: وظائف الزاوية المغربية، مقال على الأنترنيت، 2010

أخذ الضمان المتعطش والمرتوي من بحار علم الشيخ الواسعة، وهذه المعرفة محددة في الظاهر، خفيّة بسرّ صاحبها في الغالب الأعم[9].

فشيخ الزاوية، وهو معلّم أول، هو صاحب علم وسرّ، علم الطريقة والسلوك وقدوة في العمل ومقصد المريد، يحمل في شخصه النموذج الصالح لحياة الناس وكراماته ومناقبه دليلا على رغبته في الصلاح والإصلاح: إصلاح الناس في أمور العلم والدين وولايته قدوة في السلوك. وهكذا تصبح الوظيفة التعليمية مزدوجة الأداء: تفقيه الناس في أمور الدين وتقديم الأصلح عبر الصلاح، لذلك يصعب التمييز بين سمات الصلاح والولاية والأداء التعليمي والسلوكي.[10]

تساءل الكثير من المهتمين بتاريخ التصوف المغربي عن صلات هذه الوظائف بتطبيق الشريعة في مجالات الزاوية، هل الزاوية هي القناة الوظيفية الكفيلة بتطبيقها؟ أم إنّها مجرد اجتهاد مبسّط لتمثل الشريعة في مجالات ظل استيعابها لها محدودا؟[11]

فمنهم من رأى في شيخ الزاوية مجرّد فقيه أو طالب علم أخذ ببعض مبادئ الشريعة وحفظ القرآن، ليتمثّل في وسطه صورة العالم المتمكّن في مجال أُمّيّ، وبالتالي تكون أفضليته نسبية بحسب أمّيّة المجال، وبطبيعة الحال يقصد هنا بالمجال البادية تحديداً، لأنّ للحواضر علماؤها المتفقهون والعارفون بأمور الشريعة. ولنا أن نسأل هل إنّ الزاوية بوظيفتها التعليمية لم تكن سوى أداة لتجسيد حكم الشرع المجتهد فيه بحسب ثقافة الشيخ ضدّ الشرع المنظّم بقواعده والممثّلة لسلطة الدولة؟[12]

وبحسب نفس الرأي، فإنّ هذه الثنائية تتمّ عبر قناتين، فالزاوية غالبا ما تلجأ إلى إضفاء شرعية النسب على شيوخها لتثبيت ارتباط مجالها القبلي بالشرع، وهو تأكيد صريح على أنّ أداءها العلمي والصوفي وفق تلك الشرعية، يدمجها في النسق السُنّي الذي يحرص الشيخ على جعله علامة مميزة لعلمه، وبالتالي ربط ذلك العلم بالإسلام الشرعي، وهي حجة تحمي الزاوية من كل محاولات إخراجها عن نطاق المشروعية الدينية والسياسية كذلك، وبالتالي توفّر لأدائها العلمي الحماية والبقاء ضمن الجماعة.[13]

9 المازوني محمد: وظائف الزاوية المغربية، مقال على الأنترنيت، 2010

10 المازوني محمد: وظائف الزاوية المغربية، مقال على الأنترنيت، 2010

11 المازوني محمد: وظائف الزاوية المغربية، مقال على الأنترنيت، 2010

12 نفس المرجع.

13 نفس المرجع.

بالطبع قد تكون هذه الآراء معبّرة عن نظرة عامة للزاوية في عموم أدائها وبصرف النظر عن التجارب المحددة، لكن هذا الأداء لم ينظر إليه من طرف المخزن أو العلماء والفقهاء بنفس الصورة، ففي كثير من الأحيان ما تم تقييمه كان يقع خارج نطاق الشرع نفسه. فالعديد من شيوخ الزوايا تمّ رميهم بالابتداع وعانى بعضهم التعذيب والامتحان، وتمّت مناظرة البعض الآخر من طرف العلماء. إنّها المراقبة المسترسلة للأداء العلمي للزوايا، ونظر المخزن والعلماء إليها لا يمثل نهجا في إقصاء أدائها، بل هو محاولة لضبط آليّات التحكّم في وظيفة التعليم وبالطبع في الأداء العام لسلطة الزاوية.[14]

ب- وظيفة سوسيو اقتصادية:

إلى جانب الدور الديني، كانت الزاوية تقوم بأدوار اجتماعية واقتصادية، مثل إيواء المظلوم وحماية «المزاوكين»، وإعانة الضعفاء في عملية الحرث، وإطعام المساكين، والسهر على اليتامى والأرامل، وإخصاب النساء العاقرات، والاستشفاء من بعض الأمراض عن طريق امتلاك البركة، ومنح الرزق (إعطاء الخبزة). وقد كانت الزاوية تتلقّى عن ذلك هدايا مثل «الذبيحة» التي تربط الشخص بالشريف الصالح أو بالزاوية ككل، والزيارة والعطاء للضريح[15]...إلخ.

ت- وظيفة سياسيّة:

إنّ التصوّرات النظرية حول طبيعة العلاقة القائمة بين الزوايا والمخزن، تنقسم إلى تصوّرين أساسيين هما:

التصوّر الأول: يرى أنّ الزوايا عبارة عن جماعات ضاغطة؛ أي طرف مهمّ في الصراع الاجتماعي الدائر في المجتمع. فالزاوية من خلال هذا المنظور هي مؤسّسة ضدّ مخزنية، بمعنى أنّها في تعارض تام مع سياسة المخزن، بل يذهب إلى الجزم على أنّها الطرف المعارض للمخزن ورادعه وقائد الحركات ضد سياسته، فقد كانت تؤطّر القبائل التي كانت ترفض وتتمرّد على سياسة المخزن المفروضة، خاصة عندما يتعلق الأمر بفرض ضرائب جديدة من أجل «خزينة الدولة».

14 نفس المرجع.

15 الهروي الهادي، القبيلة, الاقطاع والمخزن, مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث 1844-1934، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2010، ص 174

أمّا التصور الثاني: فقد نظر إلى الزاوية، باعتبارها أداة مخزنية لممارسة الصراع تارة، ومن أجل تهدئة الأوضاع القائمة، وإضفاء شرعية على سيادتها تارة أخرى، وبالتالي جعل الزاوية تابعة للأيديولوجية المخزنية وليست منفصلة عنها. إنّها دوماً في خدمة السلطان.

إنّ هذين التصوّرين ذهبا إلى تعميم يمكن أن يكون مجانباً للصواب، لأنّ كليهما ينطلق من تصور اختزالي لمؤسسة الزاوية في نمط واحد من خلال دراسة حالة أو أكثر، خاصّة التصوّر الثاني الذي جعل من الزاوية مجرّد مؤسّسة دينية تابعة للسلطان الذي يضفي عليها الشرعية الدينية، باعتباره أمير المؤمنين.

بيد أنّ الزوايا لا ترتبط بالبعد الديني فقط، وإنّما ترتبط بأبعاد أخرى سياسية واقتصادية، وهذه الأبعاد هي التي تحدّد علاقتها سواء مع المخزن أو مع الجمهور.[16]

إنّ تركيب الديني والسياسي ومحورتهما حول شخصية السلطان، جعل المخزن يتدخّل في القضايا الأساسية للزوايا من أجل مراقبتها عن قرب ومحاربتها كما يقول بول مارتيي.[17] فسياسة المخزن في المجال الديني لم ترتبط بالمراقبة فقط، بل عملت على إضعاف بعض الزوايا وخلق الصراع بينها وبين زوايا أخرى، من خلال تفضيل زاوية على أخرى، وزيارة ضريح دون آخر. إنّ هاته العملية دفعت بعض الزوايا إلى الخروج من دائرة السلم والتفاوض إلى دائرة الحرب والصراع، مثل زاوية أمهاوش التي وصل ردّ فعلها إلى حدود اعتقال السلطان سليمان، كما هو حال الزاوية الدرقاوية التي كانت محارِبة للسلطان السياسي بشكل مباشر وغير مباشر، وذلك عبر الاشتغال في الجانب الخلفي لكثير من الحركات القروية.

لقد عرفت الزاوية في المجال المغربي عودة إلى المنطق الجهادي بفعل التدخّل الأجنبي الذي كان كفيلاً بعودة وإحياء الإسلام الجهادي لمحاربة «المستعمِر بوصفه مسيحياً ومستعمِراً»[18]

ث- وظيفة استشفائيّة:

يُعتَقد أنّ كرامات الأولياء هي معين فيّاض بالخير والبركة، ومن ثمّ يجب التقرّب إليهم في حياتهم ومماتهم، وبكل الوسائل والنذر، للاغتراف منه في تيسير الأسباب وقضاء الحاجات، ودفع الضوائق والأمراض؛ ففيض البركة يجعل من الوليّ في اعتقاد الناس، الشافي المعافي والمستسقى به، ومُذهب القحوط وجالب الخيرات، وقاهر الظلم والظالمين، ومحقّق الأمن والأمان. لذلك تعرف معظم الأضرحة، باعتبارها

16 الزاهي نور الدين: بركة السلطان، دفاتر وجهة نظر 12، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 2007، ص 86

17 الزاهي نور الدين: بركة السلطان، مرجع سابق، ص89

18 الزاهي نور الدين: بركة السلطان، مرجع سابق، ص 100

أماكن مملوءة بالبركة، وكذا باعتبارها قبراً للولي أو الصالح أو الشريف، تعرف بشفائها لأمراض معيّنة، وهي أمراض إمّا عضوية بيولوجية كالعقم وعدم إنجاب الذكور، وإمّا أمراض نفسية وعقلية ينظر إليها باعتبارها مسّا من الجن والشياطين، أو عملا سحريا كأمراض الفصام والصرع وغيرها... ويلجأ معظم الزوّار إلى الأضرحة من أجل العلاج من هذه الأمراض خاصة المستعصية منها. ونجد أنّ هاته الأضرحة تتّخذ شكل التخصّص، فكل ضريح مرتبط بشفاء نوع من الأمراض؛ فمولاي بوشعيب مثلا بمنطقة دكالة يعرف بشفاء العقم، ومولاي إبراهيم بضواحي مرّاكش مرتبط بهبة الأطفال الذكور، وبويا عمّار معروف بشفاء المختلّين عقلياً والاضطرابات النفسية والإدمان...إلخ.

الزاوية والبركة كتمثّل رمزي يعبّر عن الواقع:

إنّ العلاقة بين المقدّس (كتجريد) والمكان المقدّس (كتعيين) هي أحد المفاتيح الأساسية المؤدية إلى فهم أشكال تمظهرات هذا المقدس وتجسّداته. فالمطلق لا يمكنه أن يوجد في هذا العالم دون شهادة أو علامة بالمفهوم السيميائي للكلمة، كما يرى إميل درمنغن. لذلك أكّد كلفورد جيرتز على أهمية الطقوس داخل النسق الديني، فهي التي تجسد بالأساس عملية الدمج التي تقوم بها الرموز المقدسة بين النظرة إلى الكون ونظام القيم. فالفهم الدقيق للكيفية التي يفكّر بها الناس يمرّ بالضرورة عبر فهم سلوكاتهم وتصرّفاتهم في سياق الأحداث الاجتماعية، لذلك فإنّ فهم الدين يمرّ بالضرورة عبر دراسة الأشكال الثقافية التي تعني حسب جيرتز «بناء وإدراك واستعمال الأشكال الرمزية»[19] وهذه الأشكال الرمزية هي بالأساس وقائع اجتماعية ذات طابع عمومي. وبما أنّ الباحث لا يستطيع إدراك العالم بالضبط كما يدركه المؤمنون، فإنّه على الأقل يستطيع دراسة الطريقة التي يستعمل بها هؤلاء المؤمنون الرموز المجسِّدة لمعتقداتهم.

لقد عقلن الإسلام المقدّس، واعتبر القداسة من نصيب السماء. أمّا العالم الأرضي الدنيوي، فقد رُفعت عنه القداسة وألحق به الدنس، وبالتالي فإنّ الأماكن والأشياء الأرضية لا تستمد القداسة إلا من كونها ذات علاقة معيّنة مع السماء. فالتقوى لم تكن لتعيش في عالم دنيوي مدنّس، ولم تكن لتتحمل فكرة العيش في عالم تسوده الفوضى، لذلك آمنت بفكرة وجود خزانات للقداسة السماوية، ومن هنا وجود بعض الأماكن التي تحمل نفحات قدسية كالأضرحة، وبعض الأحجار والأشجار[20] والإنسان أيضاً.

19 منديب عبد الغني: الدين والمجتمع دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2006، ص 56

20 منديب عبد الغني: الدين والمجتمع دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2006، ص ص 45، 46

هذا التصوّر يبيّن الكيفية التي من خلالها يصبح لمكان أو لإنسان ما نوع من القداسة الممنوحة له من طرف السماء (الله) كنوع من البركة أو الهبة الربانية، هاته الأخيرة التي تتجلى في بقعة معينة كالزاوية مثلا، الأمر الذي يجعل منها مزاراً للتبرّك والنهل من منهلها طلبا للخير والنماء والاستشفاء.

لقد قام جيرتز بتحليل قصّة الوليّ «اليوسي» الذي أصبح شخصية أسطورية ذات دلالات ثقافية عميقة وواسعة، باعتباره صورة للروحانية الحقيقية للمخيال الشعبي المغربي. هذا التحليل جعله يكشف كنه ومعنى البركة التي لم تكن مجرّد مفهوم ديني، وإنّما هي عقيدة دينية بأكملها، وهي تعني أنّ المقدّس يتجلّى في العالم كهبة ربانية وقوّة يختصّ بها أناس معيّنون دون غيرهم، فالوليّ الصالح يمتلك البركة بنفس الطريقة التي يحصل بها الناس على القوة أو الشجاعة أو الجمال أو غيره من الصفات الموهوبة، وتصدر عن الانحدار من النسب النبوي للرسول محمّد. وتعكس مسألة امتلاك البركة، سواء من مصدرها «النسبي» أو الإعجازي أو هما معاً، معظم دينامية التاريخ الثقافي المغربي.[21] فقد كان الأولياء وهم مالكو البركة، بمثابة المؤسّسين الحقيقيين للوعي والنماذج المشكّلة للمجتمع في المغرب قديماً.

الضريح عنوان للبركة والقداسة:

يتمحور الضريح كمؤسّسة حول قبر الوليّ الدفين، إذ تعتبر الأضرحة في الغالب الأعم قبورا للأولياء. الأولياء أو الصلحاء أو السادة أو الشرفاء كلها أسماء متعددة لمعنى واحد، هم شخوص (رجال ونساء) من البشر وأحياناً من الجن، يعتقد أنّهم يمتلكون القدرة على قهر الأرواح الشريرة وجلب الخير لمن يرضون عنه وإلحاق الشر بمن يسلّطون عليه سخطهم، وذلك بفضل ما لديهم من بركات[22] امتلكوها في حياتهم بفعل تقرّبهم من الحضرة الإلهية كما يعتقد، والتي تمكّنهم من التوسط بين الإله والبشر لقضاء حاجات السائلين، هذه البركة والكرامات والقدرات لم تنته بموتهم البيولوجي، ولم تنقطع صلتهم بعالم الناسوت، بل تبقى هاته الكرامات حية تُنجد من يستنجد بها حسب اعتقاد الناس. ولعل أحفاد الوليّ يحرصون أشد الحرص على استمرار هذا الرأسمال الرمزي وعدم تركه لزمن النسيان، حيث يعملون على ترويج بركات جدّهم وقدراته الخارقة التي كان ولازال ضريحه يمتلكها، وليست هذه البركات سوى رغبات الناس نفسها. فجدّهم الولي قادر على إبراء المرض وتخصيب العاقر وطرد الجن...إلخ؛ أي أنّ البركة تحوّلت إلى عنف رمزي يمارسه أحفاد الوليّ على كل زائر أو محتاج. فالبركة والاعتقاد بها هي عنوان الأزمة الذاتية للشخص، فاستمرار هذا الاعتقاد هو استمرار للهبات والهدايا التي تتقاطر على ضريح الوليّ، والتي يستفيد منها أحفاده وخدّامه.

21 منديب عبد الغني، مرجع سابق، ص 59

22 منديب عبد الغني، مرجع سابق، ص 150

وتعتبر النيّة الصادقة أساس تحقق الحاجيات التي تطلب من الوليّ التوسط فيها من أجل قضائها من لدن الله عز وجل، وهذا الأمر هو ما يعرف «بالسبوب» وفي هذا يقال: «سبب يا عبدي وأنا نكمل من عندي»، وهذا المثل الشعبي يؤكّد أنّه ليس هناك تعارض بين السبوب والمكتوب.

البركة داخل تاء التأنيث:

تعتبر الوراثة أحد مقوّمات المجتمع المغربي؛ فالابن لا يرث فقط الاسم والنسب والميراث المادي لوالديه، بل يرث الشرف والصلاح والولاية أيضا. وكما يرث الرجل بركة أبيه الوليّ، فإنّ المرأة ترث بركة أبيها الوليّ. إنّ هذا الأمر يؤكد وجود وليّات صالحات يمتلكن البركة والصلاح والورع، مما يمكنهنّ احتلال مراتب عليا وسامية في حقل الولاية، فأصبحن رمزاً للبركة ترجى دعواتهنّ، ويبحث عن الشفاء على أيديهنّ اعتقاداً في ولايتهنّ.

وقد أورد رحال بوبريك مثلاً لصالحات سوس اللاتي كانت لهنّ مكانة في مجال القداسة مثل الرجال، فاشتهرن بكرامات وبركات ونلن حظوة عند الناس، وكنّ مصدر بركة في حياتهن وبعد مماتهن أيضا. فتعزى السملالية قد ورثت صلاح أبيها «محمد بن علي السملالي الذي كان رجلاً صالحاً فاضلاً ديناً وخيراً، محباً للأولياء، ومصاحباً لهم ومعينا»[23]، وقد كانت تعزى السملالية «إبّان حياتها وليّة يتبرّك بها وترجى دعواتها ويبحث عن الشفاء على يديها... وبعد وفاتها تحول ضريحها إلى مزار بُنِيت قربه مدرسة علمية عتيقة وذلك تبرّكاً بمقامها»[24] ويعتقد أنها لاتزال تتواصل مع الأحياء عبر الرؤيا لتتدخل في شؤون الدنيا، وتؤثر في مسار الأحداث عبر بركتها التي لم تنقطع بانقطاع حياتها، فرغم وفاتها لازال ضريحها يضمن لها وجوداً مادياً ويظل يلعب دوراً في ممارسة واستمرارية بركتها اللامنقطعة.

إنّ هذا الحضور الرمزي للصالحة على مستوى عالم الأحياء من خلال بركتها يعني أنّ الغياب الجسدي لا يعني غياب الروح من عالم الناسوت، بل على العكس من ذلك فروحها لازالت حاضرة، وهذا الحضور هو دليل صلاحها وقداستها، مما يجعل من ضريحها مكاناً للتبرّك، بل يتطوّر الأمر إلى حدّ يتحوّل فيه المكان (الضريح) إلى مزار سنوي تقام به طقوس احتفالية دينية أو ما يسمى «بالموسم» الذي ليس إلا تعبيراً عن بركتها الفاعلة في الواقع المعيش حتى بعد مماتها. ويترسّخ اعتقاد الناس في بركة الوليّات (والأولياء بصفة عامة) كلّما كان الضريح قديما ومكانا للزيارة، لأنّ ديمومة استقطاب الناس على مدى زمني بعيد دليل على استجابتها لطلبات المتوسّلين بها ونجاعة بركتها. فالمجال المغربي يعرف إلى جانب

23 بوبريك رحال: بركة النساء، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2010، ص 151

24 بوبريك رحال: بركة النساء، مرجع سابق، ص 153

أضرحة أولياء رجال، مجموعة من الوليّات نساء، مثل تعزى السملالية، ثم عائشة الرسموكية، والوليّة المشهورة تاعلات، عائشة البحرية...إلخ. فعلى الرغم من أنّ هؤلاء الوليّات لم يقمن بتأسيس زوايا كما هو الشأن بالنسبة إلى الرجال، فقد ارتبطن بنوع من البركة، فأصبح التخصّص يطبع بركتهنّ في قضاء حاجات خاصة معيّنة، فهناك من اختصت - حسب اعتقاد الناس – في الإنجاب، ومنها من ارتبط اسمها بالزواج، وأخريات لفك السحر وضمان دوام الزواج، وأخريات بشفاء بعض الأمراض...إلخ. فمثلاً الولية فاطمة بنت سليمان السوسية كانت «النساء يلجأن إليها لتسهيل النفاس إبان حياتها، وكل امرأة عسُر عليها النفاس مسحت بيدها على بطنها فوضعت في الحين، وهي ممارسة لا يمكن أن يقوم بها إلا النساء من الصالحات بحكم أنّها تدخل فيما حرمه الشرع على الرجل، ولو كان ولياً، في علاقته مع النساء»[25].

إذا كانت المرأة تمتلك البركة، باعتبارها هبة ربانية تمكّنها من نيل مكانة اجتماعية وتجعلها محطّ احترام وتقدير، بل مزاراً للتبرك عند وفاتها، فهل كان لهؤلاء الوليّات دور على المستوى السياسي أم إنّ دورهن ارتبط بمنح البركة فقط؟

يؤكد رحال بوبريك في كتابه «بركة النساء» أنّ دور صالحات البادية لم يقتصر على منح البركة وقضاء الحاجة، بل كانت لبعضهنّ أدوار سياسية من منطلق وظيفتها في التحكيم في النزاعات ومنع قيام الحروب في مناطق كانت سياسيا تدخل في مجال السيبة بعيداً عن سلطة الدولة المركزية ولا توجد فيها قوة قهرية تثبت السلم والأمن. فالولية لالة عزيزة السكساوية قد جنّبت قبائل سكساوة من حصار عامر بن محمد الهنتاني، الذي أقنعته، بفضل ما لها من مكانة لديه، بالرجوع، وبالتالي رفع الحرب عن هاته القبائل، ولعلّ نتائج الحرب ستكون كارثية، وهذا تمّ من خلال شأنها الكبير كصالحة كانت محط احترام وتقدير من طرف هذا القائد. لكن هذا التدخل لم يكن ذا فعالية وقوّة على مستوى التواجد السياسي في ميزان قوى السلطة، كما هو الشأن بالنسبة إلى شيوخ الزوايا من الرجال، وهذا راجع بالأساس إلى البنية التقليدية البطريكية للمجتمع المغربي، لذلك نجد أنّ المعترك السياسي لم يكن متاحا للوليات (النساء بصفة عامة)، بل كان حكراً على الذكور.

البركة كإيديولوجيا تبريرية أو البركة وإعادة الإنتاج:

إنّ الأيديولوجيا باعتبارها مجموعة من التصوّرات والأفكار التي ترتبط بالمذاهب الراديكالية التي تهدف إلى محاولة قلب النظام الاجتماعي والسياسي القائم؛ أي تعويض أنماط المعتقدات القائمة بأنماط

25 بوبريك رحال: بركة النساء، مرجع سابق، ص 157

أخرى بديلة، لم تجد لها صدى كبيراً باستثناء فئات قليلة، عكس نسق معتقدات الزوايا والصلحاء، باعتباره نسقا ينتشر بين عامة الناس الذين لا يضعونه موضع شك أو تساؤل، ويسلّمون بأنه جزء لا يتجزّأ من التنظيم الاجتماعي.

ولعل أهمّ وسيلة تمكّننا من معرفة الأيديولوجيا المتضمنة في معتقدات الزوايا، تكمن في التصور الاجتماعي لمفهوم «البركة»، هذا المفهوم الذي يعتبر شكلاً من أشكال السببية ووسيلة ملائمة تدعم نشاط الأفراد. فالبركة من هذا المنطلق، سواء في المغرب أو في جهات أخرى من العالم الإسلامي، تعتبر قوة خفية فاعلة يؤوّلها الناس كنعمة إلهية[26]، والتي ترتبط بأناس دون غيرهم، ومن هؤلاء: المنحدرون من سلالة الرسول أو الصحابة أو من الأولياء والصالحين. «فالبركة هي تجسيد للإرادة الإلهية وتبرير لوقوع أحداث وعدم وقوع غيرها. ويعتقد الخدّام والأتباع أنّ الأولياء والصلحاء أشخاص يتمتّعون بقدرة منح البركة لمريديهم، ولهذا يمكن اعتبار البركة رمزاً مجسّداً لهيمنة قوى الغيب على الأمور الدنيوية داخل النسق الاجتماعي».[27]

يبدو قبل كلّ أمر أنّ الكرامة فكرة وتطبيق، واقع ونظر، كلام وسلوك. إنّها حالة معاشة، وحقيقة تمارس. يذكرها الوليّ أو الشريف مقتنعا، ويقدّمها على أنّها حصلت وتحصل فعلا، وعلى هذا المبدأ يتوجّه في حياته وأقواله، ويلتفّ حوله مؤمنون وبه واثقون. ففي الكرامة جانبان متعاكسان: الواقعي، الظاهري، الخارجي، وما يقدم للإنسان العادي من جهة، والرمزي، الدلالي، الإشاري، أو الإيحائي من جهة أخرى. لذلك، سنحاول الكشف عن ذلك الجانب الرمزي والدلالي للبركة.

يقال: «من تأدّب مع شيخه تأدّب مع ربّه، وحرمة الشيخ على المريدين كحرمة النبيّ مع أصحابه»[28] إنّ هذا القول يؤكد ضرورة وجود الشيخ وكذا ضرورة احترامه وتوقيره، نظراً لدوره التعليمي للمعرفة المرتبطة بالعلوم الدينية. وفي هذا نستحضر تراتبية الشيخ من داخل الزاوية، فهناك «شيخ التربية وشيخ التعليم وشيخ الترقية»[29]، وهذا الأخير يكون على رأس الهرم التراتبي، لأنّ هاته المشيخة لا تدخل في باب العلم والمعرفة، بل تدخل ضمن باب الأسرار التي يتمتع بها الشيخ حسب درجته الصوفية، ثم بالبركة التي ورثها عن شيوخه أو عن النبيّ، باعتباره سليل نسبه الشريف.

26 إيكلمان ديل: الإسلام في المغرب، الجزء الثاني، ترجمة أعفيف محمد، دار توبقال، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1991، ص 46

27 إيكلمان ديل: الإسلام في المغرب، مرجع سابق، ص 46.

28 الزاهي نور الدين: بركة السلطان، مرجع سابق، ص 122

29 الزاهي نور الدين: بركة السلطان، مرجع سابق، ص 122.

ويعتبر الشرفاء أنفسهم منحدرين مباشرة من الرسول محمّد، وهم بذلك يرثون عنه الشرف والبركة، فيحظون بالتقدير والاحترام والتوقير. وقد انبعثت الشرفية بالمغرب منذ العهد المريني كردّ فعل على هيمنة الحركة الصوفية، ومن ثم استعمل دعم الشرف عبر تاريخ المغرب من أجل الجهاد ومقاومة التغلغل الأيبيري والفرنسي[30]. فالشرف والبركة قد كانا مجرّد وسيلة أيديولوجية من أجل التحكّم وإضفاء الشرعية على الوجود السياسي والتراتبية الاجتماعية داخل المجتمع المغربي، وفي نفس الوقت تحوّل الشرفاء إلى فئة اجتماعية ذات امتيازات مادية متوارثة «فالشرفاء أصبحوا معفيين مما كان مفروضاً على العامة من خدمة عسكرية وأداء الوظائف والكلف المخزنية، كما أعفوا عملياً من دفع الأعشار بعد أن فوّض لهم في صرفها على من يستحقها من بني جنسهم.»[31] ومن العوامل التي عزّزت جانب الشرفاء في المجتمع، وبالتالي في أعين الدولة، موقعهم المركزي في إطار الحركة الصوفية، عبر تعاليم المدرسة الشاذلية- الجزولية التي تنتسب لها جلّ الطرق والزوايا المغربية، وبالتالي هيمنة الشرفاء والأيديولوجية الشريفية على أكبر الطرق الصوفية في المجتمع وأكثرها اتباعاً كالوزانية والدرقاوية[32].

بيد أنّ الشريف بدأت سلطته ودوره يضيق شيئاً فشيئاً بفعل مقاومة القبائل وانتفاضتهم ضد تسلّطه (خارج العزيب)، ليبقى دوره محدوداً في بعض الممارسات ذات الطابع الميتافزيقي الرمزي الديني، من خلال ادعائه لامتلاك البركة، الأمر الذي جعل اللجوء إليه في وقت الشدة مثل استعصاء علاج بعض الأمراض، وترأّسه لتجمّعات السكان في طلب الاستسقاء أوقات الجفاف وطلب «اللطيف» في أيام القحوط والكوارث الطبيعية وغيرها، إلاّ أنّ هذا الدور الرمزي سيؤثّر بصورة أو بأخرى على الجماعات القبليّة وسيدفعهم إلى تغيير تصوّراتهم للشريف، مما سيؤهّله إلى استخدام جاهه وبركته للانخراط في شؤون أكثر أهمّية للحياة المشتركة القبلية كالحياة السياسية والاجتماعية.[33]

فعنصر البركة الذي يؤهّل الشيخ لممارسة الترقية يحتل موقعاً أساسياً في علاقة الشيخ بالمريدين، إلى جانب المستوى المعرفي والأخلاقي والسلوكي للشيخ، بوصفه ضمانة مادية ودينية على قدرته لممارسة شفاعة للمريد أو صدّ العدوان الطبيعي أو الإنساني أو ضمان الدخول إلى الجنّة... فالبركة تعتبر سراً من

30 القبيلة، الإقطاع والمخزن، مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث 1844-1934، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2010، ص 145

31 المنصور محمد: المغرب قبل الاستعمار المجتمع والدولة والدين 1792-1822، ترجمة عن الانجليزية: محمد حبيدة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، بيروت، 2012، ص258.

32 المنصور محمد، مرجع سابق، ص 259

33 الهروي الهادي، مرجع سابق، ص 180

أسرار الشيخ وهي أساس اعتقاد المريدين في خوارقه وكراماته، كما أنّها عامل أساسي لاعتقاد الجمهور والسلطان السياسي في حظوته.[34]

لقد مثّلت الكرامة سلطة وحجّة لتزكية ولاية الوليّ وصلاحه، وبفعل الأثر الإيجابي على الجماعة التي حملت على تصديقها، فالكرامة تكتسب واقعيتها من حاجة الناس لتجاوز أزماتهم الذاتية (الأمراض المستعصية عن العلاج) أو تلك المتّصلة بأوضاعهم الاجتماعية (الكوارث الطبيعية). لذلك ظلّت «الكرامة الصورة المعبّرة عن مظاهر الأزمة وتطلّعا افتراضيا لتجاوزها»[35] ومن خلالها يستطيع الصوفي تثبيت فعله ويفلح في تحكميه واسترشاده وتعليمه وتأمينه للمظلوم، ونجاحه في هذه الأدوار يكسبه رهبة ويزيده هبة وتعظيماً، وبالتالي يتحوّل هذا التفوّق الواقعي إلى تمثّل رمزي يتجاوز تأثيره حدود الإدراك الحسي.

تبدو إذن الشروط الواقعية/ الرمزية التي انطلقت منها الزوايا المعيار المحدّد لمصداقية اعتقاد الناس في الكرامة، كما أنّ هذا الاعتقاد سيترسّخ باستمرارية الزاوية بأداء أدوارها وبما تحمله لها الظروف من نجاح وفلاح في المقاصد الرمزية والدنيوية على حد سواء[36]. فالبركة أصبحت قاعدة مؤسّسة للزوايا نظراً لكونها أصبحت بفعل العادة تأتي في مرتبة تلي معجزة الأنبياء.

تعتبر معتقدات الزوايا والصلحاء بالمغرب إيديولوجيا دينية مبطّنة. فالاعتقاد في الزوايا يقوم على أساس امتلاك الصلحاء، شيوخ الزوايا، للبركة وقدرتهم على منحها لمريديهم وخدّامهم وأتباعهم. فالبركة هي نواة هذا الاعتقاد الديني وأهمّ أسسه ومرتكزاته حسب إيكلمان، حيث تستعمل كقوّة خفيّة ونعمة وهبة ربّانية تفسّر جميع الوقائع والأحداث عاديّها وخارقها، فهي تعني الدهاء السياسي الخارق عند البعض، وتبرّر الرفاه والعيش الرغيد عند بعض الناس دون غيرهم وفي مناطق معيّنة دون أخرى. وتضفي معنى على وقوع أحداث وعدم وقوع أخرى. فالأولياء ومالكو البركة مقرّبون من «الحضرة الإلهية، مما يجعل منهم أحسن الوسائط وخير الشفعاء.»[37]

يمكن القول، إنّ البركة كمعتقد ذي أصول دينية هو عبارة عن أيديولوجية تبريرية للأوضاع والتفاوتات الاجتماعية التي كان ولا زال يعرفها المجتمع المغربي. ولعل شيوخ الزوايا، الشرفاء والصلحاء، وما يمتلكونه من بركة على مستوى حياتهم تبقى قائمة حتى مماتهم، وهو ما يفسر بناء الأضرحة حول قبورهم،

34 الزاهي نور الدين: بركة السلطان، مرجع سابق، ص 123

35 المازوني محمد: وظائف الزاوية المغربية، مقال على الأنترنيت، 2010

36 نفس المرجع.

37 منديب عبد الغني، مرجع سابق، ص 66

والتي تصبح مزاراً للعديد من المعتقدين ببركتهم. كما أنّ البركة تنتقل من الوليّ، شيخ الزاوية، إلى أحد أبنائه أومريديه. وقد كان الاعتقاد بامتلاك البركة أساساً لاغتناء العديد من الزوايا، بفعل الهبات السلطانية الإقطاعية مقابل ما تقدّمه من خدمات للمخزن بتثبيت سلطته وإضفاء الشرعية الدينيّة على حكمه وسلطانه. فالزوايا، المشهورة خاصة، تتوفّر على قاعدة اقتصادية عريضة متمثّلة في العزائب الفلاحية والعقارات التجارية والمنشآت السكنية، إضافة إلى ما يقدّمه الزوّار من هدايا وقرابين؛ أي كلّ العطايا الاقتصادية المادية التي راكمتها عبر تاريخها الطويل، تحت غطاء البركة كأيديولوجيّة دينيّة سياسيّة.

التديّن المركّب بالمغرب:

يعتبر الإسلام هو الدين الرسمي للأغلبية المطلقة من المغاربة. والإسلام كدين توحيدي يقوم على أساس توحيد الله عز وجل وعدم الإشراك به أو اتخاذ أية وساطة بينه وبين عباده. هذا هو منطق الدين الرسمي، فلا شريك لله، وليست هناك وساطة تضمن العفو والمغفرة والخير وقضاء الحاجة، فالناس سواسية أمام الله. لكن التديّن الشعبي الذي يكمن في الاعتقاد بالزوايا والأولياء وأضرحتهم، يقوم على أساس افتراض وجود علاقات بين عالم اللاهوت وعالم الناسوت تعمل بنفس الطريقة التي تعمل بها علاقات البشر فيما بينهم. فالمعتقدون والمؤمنون ببركة الأولياء يتمثّلون هذه العلاقة الغيبية كالعلاقة الواقعية بين الناس التي تقوم على أساس التراتب الاجتماعي، فهناك بعض الناس في مرتبة عليا وآخرون في مرتبة دنيا من مراتب السلم الاجتماعي. «ويكمن الفرق الجوهري بين العلاقتين (حسب ديل إيكلمان) في الاعتقاد بكون الغيب أكثر قوة وجبروتاً من البشر، وأنّه يصعب التكهّن بما يصدر عنه. أمّا عدا ذلك، فهناك تماثل كبير بينهما، فمثلاً يحافظ على استمرارية كل منهما بعلاقات ((الحقّ)) التي يمثل الأولياء طرفاً في العلاقات مع الغيب. وعادة ما ينشد الناس ما وسعهم جهدهم عقد مثل هذه العلاقات مع أولئك الأشخاص الذين يعتقد في حقهم، إنّ باستطاعتهم قضاء حاجات الناس والعمل على ازدهارها.»[38]

إنّ هذا التناقض الحاصل بين التصوّر الوارد في معتقدات الزوايا والصلحاء حول العلاقة بين البشر والغيب، وبين ما هو منصوص عليه في المعتقدات الإسلامية الرسمية التي تؤكد على مساواة البشر أمام الله وتلغي مفهوم الوساطة، لم يخلق أبداً نوعاً من الصراع داخل صفوف المغاربة، بل إنّهما يتعايشان معاً ولا يسعى أحدهما للقضاء على الآخر. فعلى الرغم من التناقض المنطقي والعقدي الواضح بينهما، إلاّ أنّ هذا التناقض لا يظهر على المستوى الاجتماعي، فالمعتقدون ببركة الزوايا يقومون أيضاً بالطقوس الرسمية للدين الإسلامي من صلاة وزكاة وصوم وحجّ لمن استطاع إليه سبيلا.

38 إيكلمان ديل: الإسلام في المغرب، مرجع سابق، ص 49

إنّ هذا التديّن المركّب الذي يعرفه المجتمع المغربي، إنّما هو نتاج تفاعل التقاليد والأعراف والقيم مع الدين الرسمي؛ أي نتاج البنية السوسيوفكرية للمغاربة. فالذين يلجؤون عادة إلى زيارة الأولياء والصالحين بالزوايا بصفة عامة، من أجل التبرّك بها، وطلب الشفاء على يدها أو غير ذلك من قضاء الحاجات، تجده ذا بنية سوسيواقتصادية هشة، لأنّه غير قادر على مصاريف التطبيب والعلاج، لذلك يفكّر في بدائل تكون أقرب إليه وبنيته الذهنية، فالمعرفة الدينية التي يحملها هؤلاء لا تعدو كونها نقلاً سمعياً يرتبط ببضع أحاديث أو آيات قرآنية وتفسيرها، إمّا من خلال وسائل الإعلام (التلفاز أو الراديو) أو من خلال خطبة الجمعة التي لا يتّسع وقتها لدراسة معمّقة فاهمة للدين الإسلامي.

البركة والزوايا بين الثابت والمتحوّل:

لقد كان الأولياء وهم مالكو البركة، بمثابة المؤسّسين الحقيقيّين للوعي والنماذج المشكلة للمجتمع في المغرب قديما، إلاّ أنّ الأمر لم يعد كذلك مع بداية القرن العشرين، حيث تغيّرت الحياة الدينية للمجتمع المغربي بشكل كبير، وهذا أمر طبيعي ومتوقّع طالما أنّ الدين ليس ماهو إلهي وإنما مجرّد فكرة عنه؛ فالناس يتعاملون بالأساس مع تصوّرات عن الدين ترتبط بالضرورة بوظائف مكانية وزمانية محدّدة. وقد عمل المغاربة جاهدين على الحدّ من نضج التناقضات التي نشأت بحكم التغيّرات التي مسّت مجتمعهم، انطلاقاً من تجربة الاستعمار إلى المؤسسات الجديدة التي ظهرت للوجود مع الدولة الوطنية، حيث اجتهدت الحركة السلفية لتحول دون اصطدام الدين بالعلم، وذلك بأن جعلت هذا الاخير يبحث في المسائل المادية التي لا تمس نتائجها بالضرورة حقائق الدين، إذ «نظر إلى العلم كعلم والدين كدين.»[39] وبما أنّ مهمة الدين هي جعل الحياة أقل صعوبة في الفهم بالنسبة إلى المؤمنين وأقل تعارضاً مع حسّهم المشترك، ومادام الاعتقاد الديني هو مصدر الحسّ المشترك الذي يصوغ ويشكّل الفعل الاجتماعي، فإنّ التقاليد الدينية المغربية المعدلة تبقى رهينة استمرارية نمط الحياة التي تصوّره، ممّا يفسر جزءا كبيرا اليوم واقع العلمانية التي تطبع الحياة اليومية للمغاربة. فالاعتبارات الدينية في المجتمع المغربي رغم كثافتها، لا تلعب دور الموجّه للسلوك إلاّ في بعض المجالات المحدودة، فهي تكاد تغيب مطلقا في الشؤون التجارية والقضايا السياسية[40]، بيد أنّ هذا التمييز بين أشكال الحياة الدينية وجوهر الحياة اليومية يسير حتماً نحو نقطة الانفصام الروحي.[41]

39 منديب عبد الغني، مرجع سابق، ص 60

40 نفس المرجع، ص 60

41 نفس المرجع، ص 60

فالبركة كاعتقاد، والزاوية كمكان يحوي هاته البركة، كان سائداً بشكل كبير بين صفوف المغاربة – في بعده الاستشفائي والتعليمي والسياسي- وأصبح اليوم محطّ منافسة من طرف العديد من المؤسسات ذات الطابع الحديث. فعلى المستوى الاستشفائي نتحدّث اليوم عن التطوّر الطبّي والصيدلي من خلال المختبرات الطبية المنتجة للأدوية، فكثير من الأمراض التي كانت مرتبطة بالزوايا والأضرحة كالعقم والصرع ...إلخ، أصبحت اليوم ترتبط بالعلاج الطبّي العلمي. بيد أنّ هذا لا يعني بأنّ الزوايا قد فقدت هاته الوظيفة، بل على العكس من ذلك، لاتزال الزاوية تقوم بهذه الوظيفة الاستشفائية خاصّة لدى الناس الذين يعتقدون بقدرات وكرامات الأولياء وبركتهم. كما أنّ البعد السياسي الأيديولوجي لا زال قائما أيضا، وذلك من خلال ممارسة العنف الرمزي على الفئات الشعبية التي تؤمن أشد الإيمان ببركة الأولياء من خلال أضرحتهم وقدرتهم على الشفاء وقضاء الحاجة، على الرغم من أنّ البعد السياسي أخذ طابع المؤسسة الحزبية الحديثة، إلاّ أنّ هذا الأخير لازال محكوما بمنطق القبيلة والانتماء الشرفي أيضا. أمّا على المستوى التعليمي، فقد حافظت الزاوية إلى حدّ ما على وجودها من خلال الدعم الذي تعرفه من خلال الهبات المخزنية، لكن على الرغم من هذا الدعم، فإنّ الأُسَر المغربية تتوجه بأبنائها إلى المدرسة المغربية الحديثة، على اعتبار أنّ التعليم الحديث هو الضامن لمستقبل أفضل لأبنائهم.

على سبيل الختم:

إنّ دراسة وتحليل البركة والزاوية بنظرة سوسيولوجية، يحيلنا إلى أنّ الزوج المفاهيمي يحمل بين طياته جوانب خفيّة وأخرى معلنة. لكن الفحص الدقيق هو ما أبدى لنا خبايا المفهوم (ولو بشكل نسبي، لأننا لا ندعي أنّ بورقتنا هاته نستطيع الكشف عن المفهوم وسبر أغواره ود استه من جميع جوانبه وحواشيه)، والذي يحمل في طياته التقليدية تزييفا وتبريراً وعنفا يروم المحافظة على الوضع الاجتماعي في آخر المطاف، على الرغم من كون بدايته كانت ـ مع بعض الزوايا ـ معارضة لسياسة المخزن السلطوية.

إذا كان مفهوم البركة في علاقته بالزاوية قد ارتبط أساساً بالاعتقاد الديني الشعبي كتمثّل رمزي وممارسة عملية أيضاً، فإنّ هذا الاقتران هو ما جعله أيديولوجيا فعّالة في ممارسة مالكي البركة سلطتهم على المعتقدين والأتباع. وكلما كان عدد المعتقدين ومريدي الزاوية كثرا، كانت الزاوية من خلال شيخها قوية، فسلطتها تُستمَدّ من حظوتها ونفوذها على مستوى المجال. وبالتالي تشكّل تهديداً للدولة السياسية، الأمر الذي يستدعي، إما تحالفاً أو عداءً بينهما. وتبقى العلاقة القائمة بينهما ترتبط أساساً بالمصالح المشتركة وكذا القدرة على حفظ الوجود والتواجد النفوذي لهما. لكن المخزن قد عمل على ترويض الزوايا (شيوخها) من أجل خدمة مصالحه ولو بعد حين، وبالتالي كانت الزاوية تلعب دوراً أيديولوجيا تبريرياً للواقع، فقد

عملت على إضفاء الشرعية على الحكم السياسي القائم على أسس دينية. لكن هذا التبرير لم يكن مجاناً، بل كان مقابل امتلاك نفوذ اقتصادي واجتماعي على مجال معيّن، فقد عمل المخزن على منح العزائب والهبات للزوايا من أجل بقائها كي تغتال كل حركة تنويرية تحررية من العنف الرمزي والأيديولوجي الممارس على المغاربة عبر تاريخهم الطويل، ولم تكن تلك اليد سوى إيمانهم بالبركة كمفهوم ذي أصول دينية عقدية، البركة كشيء خارق للعادة، قادر على تحطيم حواجز تحقيق الحاجة، والتي ليست إلا ذلك النقص الذي يعيشه الإنسان، الذي يعمل الوليّ أو الشريف أو أحفاده (في حالة زيارة ضريح الولي الدفين) ليشعل بذلك شمعة الأمل المفقود، الذي يؤجج الاعتقاد بقدرة الولي أو ضريحه على تحقيق مبتغى المعتقد المتوسّل، هذا الأمر الذي يتطلّب منه النيّة والتسليم كشرط تحقّق الغرض المطلوب. لكنّ التجربة الاستعمارية وبعده الدولة الوطنية بعد الاستقلال التي ستذهب في نفس الخط، عملتا على خلق مؤسّسات جديدة، وبالتالي خلق نوع من التنشئة الاجتماعية التي أصبحت تميل أكثر إلى المؤسسات المدنية عوض اللجوء إلى الأولياء والأضرحة، بيد أنّه على الرغم من كل التحديث الذي عرفه المغرب إلاّ أنّ العقلية المرتبطة بالزوايا والأضرحة لم يتمّ القضاء عليها واقتلاعها من جذورها، لأنّ المغاربة لازالوا يبدون الولاء والطاعة للسادة والأولياء، كجزء من التقاليد الحياتية إن لم تكن يومية فهي موسميّة على الأغلب.

المراجع والمصادر:

- المعجم العربي
- لسان العرب
- البياتي صباح: التبرّك بالصالحين والأخبار والمشاهد المشرفة، مركز المستبصرين، بدون ذكر سنة النشر.
- الزاهي نور الدين: بركة السلطان، دفاتر وجهة نظر 12، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 2007
- المالكي عبد الرحمان: الثقافة والمجال، دراسة في سوسيولوجيا التحضر والهجرة في المغرب، منشورات مختبر سوسيولوجيا التنمية الإجتماعية، الطبعة الأولى 2015
- المنصور محمد: المغرب قبل الاستعمار المجتمع والدولة والدين 1822-1792، ترجمة عن الانجليزية: محمد حبيدة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، بيروت، 2012
- المازوني محمد: وظائف الزاوية المغربية، مقال على الأنترنيت، 2010
- الهروي الهادي، القبيلة، الاقطاع والمخزن، مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث 1934-1844، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2010
- إيكلمان ديل: الإسلام في المغرب، الجزء الثاني، ترجمة أعفيف محمد، دار توبقال، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1991.
- بوبريك رحال: بركة النساء، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2010
- منديب عبد الغني: الدين والمجتمع دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2006.
- عموري عبد العزيز: من تاريخ التصوف بالمغرب، زوايا مدينة فاس: مؤسسوها، مريدوها، امتداداتها في المجتمع الفاسي، مؤمنون بلا حدود، 4 أبريل، 2017
- ضريف محمد: مؤسسة الزوايا بالمغرب، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، الطبعة الأولى 1992

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019

All rights reserved © 2019